[1]صورة الآخـــــر عند الـــروائي حســـن حميـــد
قراءة في رواية "جسر بنات يعقوب"

الدكتور صالح أبو أصبع- جامعة فيلادلفيا

1.المدخل
2-ما هي الصورة ؟
2-1 - الصورة الفنية Image
2-2 - الصورة النمطية Stereotype
2-3- الصورة النمطية لليهودي
3- الزمن والمكان في الرواية وعلاقتها بالصورة في الرواية :
3-1 الزمن : فضاءً روائياً
3-2 المكان : فضاءً روائياً
4- بناء الرواية : حكايتان متوازيتان في رواية واحدة
5- صورة الآخر في رواية جسر بناب يعقوب
5-1 صورة يعقوب:
5-2 صورة بنات يعقوب:
5-3 صورة سليمان عطارة:
5-4 صورة العجوز :
5-5 صور شخصيات أهل الشماصنة:
6- الخاتمة:
7- الهوامش

صورة الآخـــــر عند الـــروائي حســـن حميـــد
قراءة في رواية "جسر بنات يعقوب"

[1] ندوة صورة الآخر الأجنبي والحوار الحضاري في الرواية العربية المشاركة بورقة عنوانها " صورة الآخر عند الروائي حسن حميد: قراءة في رواية جسر بنات يعقوب" اتحاد الكتاب العرب- دمشق 15-16 تشرين الثاني 2008م.

صورة الآخـــــر عند الـــروائي حســـن حميـــد
قراءة في رواية "جسر بنات يعقوب"

الدكتور صالح أبوأصبع-جامعة فيلادلفيا

1.المدخل:

الآخر موضوعة تشكل أساس المواجهة أو التلاقي، الاختلاف أو التوافق، ومن هنا يبدأ التساؤل من هو الآخر ؟

نقطة البدء تبدأ مع الذات التي تواجه الآخر المختلف والمغاير، المختلف فكراً أو عقيدة والمغاير جنساً أو عرقاً أو انتماء للمكان، أو من حيث المهنة، أو الانتماء الجغرافي أو الحالة الاجتماعية أو المركز الاجتماعي، وكل ما هو غير الذات يصبح الآخر.

والبحث في العمل الروائي، هو بحث في أشكال الحياة التي يبثها الكاتب في شخوصه ويجسّد علاقتها بالآخرين، ووجود الآخر المختلف أو المغاير عنصر يخلق الحيوية في العمل الروائي هو أساس العمل الدرامي وأساس الصراع فيه الذي يسهم في خلق الحياة الروائية وحركتها.

الآخر ، وإذا اتفقنا أن الدراما عنصر أساس في أي عمل روائي يخلق الحيوية التي تقوم على الفعل ورد الفعل لتخلق نوعاً من الصراع بين الشخوص الروائية ويقود العجلة، بالتحرك دوماً بالحدث إلى الإمام.

فمن هو الآخر لدى حسن حميد في رواياته **رواية جسر بنات يعقوب؟** [1]

يمكننا أن نتتبع عناصر تكوين صورة الآخر لدى حسن حميد بأشكال مختلفة :

1. الآخر المختلف في العقيدة الدينية المسيحي> < واليهودي.
2. الآخر المختلف في العرق العـربـي > < واليهودي.
3. الآخر المختلف الذي يشكل تهديداً للوجود ابن الأرض > < في مواجهة المحتل العدو.
4. الآخر المختلف في الثقافة ابن الريف >< المدينة.

[1] حسن حميد: جسر بنات يعقوب الطبعة الثانية (دمشق: دار السوسن للنشر والتوزيع والطباعة 2001)

في رواية حسن حميد "الونّاس عطية ص 29يقول الراوي..".. قناعتي كانت مطلقة .. بأن سعادتي مع نورا ، نورا التي هي روح جديدة، ومجتمع جديد وحضارة جديدة "[2] ، يدرك الكاتب أن العلاقة مع المختلف يمكنها أن تشكل تغييراً وتصنع أسلوب حياة جديدة بل وحضارة جديدة.

ولكن رواية جسر بنات يعقوب تقدم صورة للآخر الذي يُشكل عدواً وتحدياً للوجود، ومن خلال دراسة عناصر صورة الآخر التي فيها نجد أن عناصر صورة الآخر في الرواية هي أوجه سلبية يرتبط بعضها بالصور النمطية السائدة لشخصية اليهودي، سواء كان ذلك مرتبطاً بصفاته الجسدية لليهودي المشهور بأنفه المعقوف أو مرتبطاً بصفاته الخلقية والسلوكية المتمثل بالجشع والانتهازية والانطوائية وحب المال واستغلال الجنس لتحقيق الأهداف، والتكاتف فيما بين اليهود ودعمهم غير المحدود بعضهم للبعض الآخر.

2- ما هي الصورة ؟

تعرف الموسوعة البريطانية الصورة: بأنها " بشكل عام نسخة من شيء آخر أو تمثيل له، أو مقابلة، فانعكاس شخص في مرآة يسمى صورة"[3]

ويعرف كينيث بولدنج Kenneth E. Boulding الصورة العامة بأنها منتج لخطاب الكون ذلك بأنها عملية مشاركة الرسائل والتجارب وتأتي الرسائل المشتركة التي تبني الصورة الهامة من الطبيعة والناس الآخرين [4] ويرى بولندج بأن صدق الصورة يمكن أن يقاس باستقرارها وبقائها أو يمكن أن يقاس صدقها بمقدرتها على Confers for survival في معالجتها الموضوعية[5]

حينما نسير في اتجاه دراسة الصورة في الأعمال الأدبية نتساءل ما المقصود بالصورة ؟ يمكن دراسة نوعين من الصورة في العمل الابداعي وهما **الصورة الفنية والصورة النمطية:**

2 – 1 الصورة الفنية Image

ويعرفها قاموس الأدب العالمي بأنها "شكل -وعلى وجه خاص – رؤيا وهي تعبير عن شيء ذى استجابة حسية تستخدم عادة تعبيراً ما أكثر دقة.6

وتعريفها لدى أوستين وارن – رينيه ويلك بأنها : " إعادة إنتاج عقلية ، ذكرى، لتجربة عاطفية أو إدراكية عابرة، ليست بالضرورة تعبيرية".7 وتكمن فاعلية الصور أساساً في تمثيلها للإحساس 8

إذ إن الصفات الحسية التي تخلقها الصور، وإن كانت تخلق نوعاً من الحيوية لوضوح ودقة التفاصيل فهي ليست العامل الحاسم في إضفاء الفاعلية على الصورة إذ إن فاعليتها عند (أ. ريتشاردز) "ترجع إلى مقدار ما تتميز به هذه الصورة من صفات باعتبارها حدثاً عقلياً لها علاقة خاصة بالإحساس على نحو لم يمكن تفسيره حتى الآن. ولكننا نعلم أن استجابتنا العقلية والإنفعالية إزاء الصور يعتمد على كونها تمثل الإحساس أكثر مما تعتمد على الشبه الحسي بينها وبين الإحساس، وقد تفقد الصورة طبيعتها الحسية، إلى حد يجعلها تكاد لا تكون صورة على الإطلاق وإنما تصبح مجرد هيكل ومع ذلك فهي تمثل إحساساً لا يقل عن الإحساس الذي تولده لو كانت على درجة قصوى من الحسية والوضوح .9

2 -2 الصورة النمطية Stereotype

والتي هي شكل من التمثيلِ الذي يُحوّلُ الناس إلى بضعة خصائص أساسية بسيطة التي تمثلهم كطبيعة ثابتة .والصورة النمطية يمكن التنبؤ بها اعتمادا على الفكرة البسيطة التي بناء عليها تكون عضويةِ الفردِ ضمن أيّ مجموعة إجتماعية مُعطية (مستندة على، على سبيل المثال، صنف، جنس، جنس، عُمر، أو جنس) تُهيّئُه دائماً لإمتِلاك بَعْض خصائصِ الشخصيةِ، مواقف، أو سلوك.10

وفي تعريف آخر الصورة النمطية تعميمَ حول مجموعة من الناسِ حيث نَنْسبُ لهم مجموعةَ الخصائص. يُمكنُ أنْ تَكُونَ إيجابيةً أو سلبيةً، مثل عندما نعتبر الصورة النمطية لجنسياتِ مُخْتَلِفةِ صديقة أو نعتبرها غير ودّية.[11]

وفي دراستنا هنا يعنينا الصورة النمطية والتي تتسم بأنها أنها تجميعيةو قابلة للتصديق الصورة وحيوية ومبسطة التي بها يمكننا أن نتعرف على ملامح الشخوص الروائية [12]

وفي كتابه " الصورة The Image "- الـذي يعتـبر كلاسـيكياً في هـذا المجـال- يقسّـم كينيـث بولـدنج Kenneth E. Boulding: المعرفــة في الحيــاة والمجتمــع إلى عشرـة أنــواع الصورالمرتبطة بالإنسان والمجتمع وهذه هي :

أولاً : الصورة المكانية : وهي صورة الفرد للموقع في الفضاء المحيط به .

ثانياً : الصورة الزمانية : صورة تسلسل الوقت وموقعه فيه .

ثالثاً : الصورة العلائقية : صورة الكون حوله باعتباره نظام للأشياء الممتازة .

رابعاً : الصورة الشخصية : صورة الفـرد في وسـط الأشـخاص الأدوار والمـنظمات في وسط الكون الذي يعيش فيه .

خامساً : الصورة القيمية : صورة القيم والتي تتكون من التنظيم والمعيار لما هـو أفضل أو أسوأ لمختلف أجزاء الصورة .

سادساً : الصورة العاطفية وصورة المشاعر : والتي بهـا تتـأثر عنـاصر الصـورة بالعاطفـة والتأثيرات .

سابعاً : تقسيم الصورة ومواقعها الواعية وغير الواعية وما تحت الوعي .

ثامناً : تصنيف الصورة من حيث أبعاد اليقين أو الشك الوضوح والغموض .

تاسعاً : تصنيف الصورة من حيث الواقعية حيـث تترافـق الصـورة ذاتهـا مـع الحقيقـة الخارجية .

عاشراً : تصنيف الصورة من حيث معيار عموميتها أو خصوصيتها فيما إذا كانت الصورة يتشارك فيها الآخرون أو هي خاصة بالفرد .[13]

والرواية تقوم على بناء صورة لليهودي بناء على الصورة النمطية العالمية . وهي في حقيقة أمرها تم تكريسها في الغرب ، في حياتهم اليومية وتم تجسيدها في أعمال أدبية ، ولعل قمة الصور النمطية السلبية لليهودي هي التي تمثلت في برتوكولات حكماء صهيون التي ينفي اليهود صلتهم بها ويعتبرونها من تأليف أعداء السامية في روسيا .[14]

3-2 الصورة النمطية لليهودي :

لو حاول أحد الباحثين للدخول إلى أحد محركات البحث للشبكة العالمية (الانترنت) للبحث عن الصورة النمطية لليهودي Jews Stereotype ، فإنه سيجد مئات آلالاف من الموقع الالكترونية ذات المدخلات التي تشير إلى الصورة النمطية لليهودي وبعضها يرجعنا إلى كتب أو مقالات أو مدونات أو غير ذلك .

ومن هذه الصورة النمطية لليهودي التي أشار إليها ***Doug Brook*** ما يلي [15]:

1 . الصورة النمطية : كُلّ اليهود عِنْدَهُمْ أنوفٌ كبيرةٌ.

2. الصورة النمطية : اليهود جميعاً أغنياء.

3. الصورة النمطية : اليهود رخيصون،

4. الصورة النمطية : اليهود مراوغون.

5. الصورة النمطية : يَلْبسُ كُلّ اليهود المتدينين قبعات ومعاطف سوداء

6 . الصورة النمطية : قَتَلَ اليهود السيد المسيح

7 الصورة النمطية .: يستعملَ اليهود دمّاً لجَعْل matzah

8 . الصورة النمطية : كُلّ النساء اليهوديات مناسبات لك.

9 . الصورة النمطية : كُلّ النساء اليهوديات يمتلكن خصائص الصورة النمطية للأم اليهودية.

10 . الصورة النمطية : اليهود ما زالوا اليوم يُقدّمونَ التضحياتَ في الصلوات .

11 . الصورة النمطية : كُلّ اليهوديلتزمون بأكل الكوشرَ.

12 . الصورة النمطية : يُسيطرُ اليهود على هوليود ويُسيطرُون على كامل صناعةِ الترفيهِ.

13. الصورة النمطية : يُسيطرَ اليهود على الأخبارِ.

14. الصورة النمطية : يُسيطرُ اليهود على الحكومةِ.

15 . الصورة النمطية : يُسيطرَ اليهود على صناعة النشرِ

16.الصورة النمطية : اليهود يحبون المال ويحصلون عليه بأي وسيلة

17.الصورة النمطية : اليهود يستغلون الجنس لتحقيق أغراضهم

هذه الصورة النمطية ليست جميعها متجسدة في الرواية ولكن تم التعبير عنها بطرق مباشرة أو غير مباشرة

3- الزمن والمكان في الرواية وعلاقتها بالصورة في الرواية :

يشعر قارئ الرواية بأنها تحمل في طياتها التباساً يراوح بين الخيال والحقيقة، فهي تحمل معها رداء من التمويه، فأسماء الأماكن حقيقية- باستثناء اسم قرية الشماصنة التي لا وجود لها تاريخيا أوجغرافيا ـ إذ أن جسر بنات يعقوب ونهر الأردن وفلسطين وبيت المقدس تشير إلى هذا المكان الجغرافي، وتحديد وقوع أحداث الرواية في عهد المماليك أوائل القرن الثالث عشر ـ ميلادي، ولكن الشماصنة كقرية غير موجودة على الخارطة جغرافياً تصبح رمزاً، والزمان في الرواية غير واقعي تاريخاً إذ يخلط بين الأسطوري وانعكاسه على الواقع.

3-1 الزمن : فضاءً روائياً

يختار الكاتب أزمناً بعيداً في مرحلة المماليك وهذه المرحلة الروائية تطرح نوعاً من التساؤلات حول هؤلاء الغرباء – الذين يبرزون لنا من خلال الصورة النمطية لليهود .. الذين كانوا يعيشون في ظل الحضارة العربية الإسلامية حياة متسامحة عبر عنها كتاب صهيونيون بأنها تمثل الفترة الذهبية لليهود . وهنا يكفي الرجوع إلى كتابين هما :

- Paul E. Grosser & Edwin G. Halperin: **Anti-Semitism The Causes Effects of a Prejudice**
- D. Goiten , **Jews & Arabs :Their Contacts Through the Age**

ونجد أن الكتابين يؤكدان على أن ازدهار الفكر والفلسفة وتطور اللغة العبرية ومشاركة اليهود مشاركة كاملة في الحياة الاجتماعية كان قد تم في ظل حياتهم في لواء الحضارة العربية الإسلامية . في الوقت الذي كان يعاني اليهودي في أوروبا المسيحية الاضطهاد والتي كانت تنعكس على صورته النمطية في الحياة اليومية وكان

لها بعد ذلك انعكاساتها في الأدب مثل الشخصيات الأدبية من شكسبير وموليير وغيرهما .[16]

وهنا كان اختيار هذه المرحلة كأنه ناقوس تذكير للعودة إلى طبيعة العلاقة بين العربي واليهودي ، والى أن مصادر الصورة النمطية لليهودي انبثقت على علاقات تاريخية لم يكن العربي / المسلم مصدرها بل إنها ترتد إلى التعامل الذي لقيه اليهودي في أوروبا المسيحية في تلك العصور المتقدمة إذ لقي اليهود معاملة تسامح بين ظهرانيي العرب ولم يعرفوا شيا من العداء للسامية الذي لقيه اليهودي في أوروبا[17] ولم يكن عبثاً أن يكون اللقاء بين اليهودي وبين أهل الشماصنة والقرية .. هو لقاء بين الشماصنة وديرها وراهبات الدير .. أن الصراع في تلك الفترة لم يشهد صراعاً مسلماً عربياً في مواجهة اليهودي .

وهكذا كان التداخل التاريخي في هذه المرحلة ، وفي هذه المنطقة بين المسيحي واليهودي ليؤكد أمرين هما :

1. إن لم يكن هناك صراع تاريخي بين سكان المنطقة وبين اليهود إلا بعد دخولهم الاستيطاني ورموزه في الرواية واضحة " العجوز – رمز الصهيونية العالمية " " سليمان – الرأسمالية اليهودية " " يعقوب بناته – المهاجرون اليهود القادمون من الشمال " .
2. أن الصورة النمطية التي تكونت عن اليهودي لها جذورها التاريخية ولم تكن في حدتها ولا في صورتها النهائية التي تجذرت وانتقلت لتصبح صورة نمطية عالية ، إلا نتاج حضارة أوروبا المسيحية .

2-3 المكان : فضاءً روائياً

يختار الكاتب الشماصنة مكاناً رمزياً لتدور فيه أحداث الرواية هذا المكان الذي يقع على ضفة نهر الأردن الغربية ومن المكان المعروف بجسر بنات يعقوب وهنا نجد أن الكاتب يزاوج بين خيالية المكان وواقعيته .

فهو يختار مسرحاً للأحداث الدير الذي يقع على جبل مرتفع تعيش فيه الراهبات بما يحملنه من زهد في الحياة وبحث عن شفاء الروح ، وفي مكان عال أقرب إلى السماء .

والمكان الآخر الذي اختاره يعقوب بنفسه في مكان خفيض وهو قرب الجسر ، ليحمل معه كذلك بعداً يناقض الموقع الأول ، فهو مكان منخفض يرتبط بالحياة اليومية قرب الجسر ليكون حارسه وليبني الخان بجواره كي يكون جابياً ومتاجراً ببناته من أجل المال . وهكذا يكون اختيار المكان جزءاً حيوياً في بناء الصورة النمطية ليعقوب وبناته (اليهودي الذي يسعى إلى المال ولو بأي ثمن).

4- بناء الرواية : حكايتان متوازيتان في رواية واحدة

تنقسم رواية جسر بنات يعقوب إلى حكايتين رئيسيتين متوازيتين:

الأولى: قصة الدير في قرية الشماصنة التي تقع إلى الشمال الغربي من قرية طبريا ويتحدث أهلها الآرامية " هذا كتاب، فيه مجموعة كتب، وصل إليّ بالتوارث عن ثلاثة عشر جداً من أجدادي، وقد عثروا عليه في خزانة كتب جدنا الرابع عشر العالمة المقدسي المعروف إلياس الشمنذوري، الذي عاش في مدينة القدس في بداية القرن الثالث عشر ميلادي أيام المماليك " (ص 7)

تقص حكاية الدير قصص الراهبات الثلاث، ماريا وصفية ومرجانة، ووكيل الدير حنا وهذا الجزء لا يروي علاقة الدير بيعقوب وبناته التي أشارت لها الرواية في الهوامش إذ جاء فيها: " هذه تعليقات بقول جدي، على ما حدث في الدير، وعلاقته بيعقوب وبناته، وفيها يقول أفكاراً عديدة على شكل يوميات وملاحظات" (ص58)

وكل ما جاء حول هذه العلاقة جاء في ثلاثة هوامش (ص 58-59) إذ يتحدد بوصف يعقوب بأنه تاجر "الرجل تاجر" (ص58) وبأنه لا يجب الارتباط بالأمكنة " (ص59). وبعد أن عرفوا أن يعقوب يتحدث عن قدراته الخارقة، قالوا: إنه دجّال، وإنه لن يحل مشكلات الناس، ولن يشفي أمراضهم، أو أمراض دوابهم، وأما لا أمان له على الأطفال عندما يقوم بعملية الختان، وأنه لن يزرع شجرة، أو يربي بقره أو بغلة لأنه لا يحب الارتباط بالأمكنة مهما طال فيها، فيعقوب وأمثاله، ومنذ أن يخلق الواحد منهم تخلق معه جرثومة حب التنقل من مكان إلى آخر، وحب العزلة والانطواء، لأن الآخرين مثل الضوء يكشفون أعماقه ودواخله، وغاياته الرخيصة" (ص59) وبأن الأمر يقتضي طرد الرجل لأنه خطير وعدو وسيء " ..... وفتحن أمامهن بعض الأوراق التي كتبها، وقرأن فيها كلاماً يثير السخرية و المرارة، وبين أن كثيراً من الحشائش التي يوصي بالتعامل معها سامة، ومضرة بالجسم،

وتؤدي إلى العقم، وقلن أن الواجب يقتضي- طرد الرجل لأنه خطير وعدو وسيء لكن ... تعاليم الدين"(ص59)

عند هذا الحد نقف أمام حكاية تقف موازية تماماً للحكاية الأخرى حكاية يعقوب وبناته وسليمان، الذين جاءوا من الشمال غرباء عن المنطقة ليستولوا على جزء من أرض القرية قرب الجسر العتيق المبني على نهر الأردن الذي سيصبح اسمه فيما بعد جسر بنات يعقوب.

والرواية ليست تاريخاً وإن كانت تشير إلى أحداثها التي وقعت في بداية القرن الثالث عشر- الميلادي أيام المماليك أو قبل ذلك بقليل،" وبالسؤال لم يؤكد أحد من أجدادي الإجابة بأن جدنا العلامة إلياس الشمنذوري هو من دوّن سيرة يعقوب وبناته بخط يده، ولذلك من المفيد القول أنه من الجائز بأن أحداً من أجداد جدنا إلياس هو من قام بتسجيل هذه السيرة، والفضل يعود إلى جدنا إلياس في المحافظة عليها من الضياع والبعثرة، وأيدي الزمان" (ص 7)

يشير الكاتب إلى أن سيرة يعقوب وبناته وصلت إليه ومعها الملحق وهو "الدير والرهبان" الذي جعله في مقدمة الكتاب لأنه تمهيد لأحداث ستأتي ومفاجآت ستحدث إذ يقول الراوي: " والشيء الوحيد الذي قمت به، وعن قناعة تامة، هو أنني قدمت ما أسماء جدي بالملحق إلى أول الكتاب لإيمانني بأن ما من فائدة ترجى منه إذا ما بقي في آخر الكتاب، فهو، أي الملحق ليس تلخيصاً لما جرى ولا هو نتيجة أو فائدة، وإنما هو تمهيد لأحداث ستأتي، ومفاجآت ستحدث، وأحلام ورغبات يساهرها الناس، لكي تصير واقعاً" (ص8)

جاء هذا الملحق في خمسين صفحة وأصبح بذلك هو مقدمة الرواية ويقع في ثلاثة أجزاء تحت عنوان 1. الدير والرهبان 2.حنا المحرّم المر 3. الراهبات، وبقيت حكاية موازية للحكاية الأساسية ، ولم تقدم ما يفيد في تطوير حبكة الرواية، وهذا ما جعل الكاتب في مفتتح الرواية يشير تحت عنوان : "في إشارة لا بد منها" يقول عن هذا ا لتمهيد،"إنه تمهيد من النوع الذي يراوغ كثيراً، ويحاور كثيراً ويجهد كثيراً قبل أن تستوي المعاني على ألفاظها. أنه تمهيد يسعى إلى معناه ليس قبل بداية الرواية فقط، وإنما بعد الانتهاء منها أيضاً"(ص8)

ولعل الفائدة الوحيدة من الملحق هي خلق جو يصور طغيان الشهوة وخيبة الأمل في الحب التي قادت الراهبات ووكيل الدير إلى الرهينة وخدمة الدير حيث حصل لكل واحد منهم ما قاده إلى ذلك.

حنا الذي سيصبح وكيل الدير أحب بديعة المتزوجة " ورضي حنا بحبها البعيد المنال، وصدودها عنه، وغيابها الدائم، رضي بمناجاتها في وحدته، واستحضار طيفها ومعانقته"(ص 25) وحينما تموت بديعة وزوجها ينذر نفسه للدير " وحين شاع الخبر، عم الحزن، وهجر حنا والديه، والصبايا اللواتي حوّمن حوله طويلاً، ونذر نفسه للدير بعدما أحس بأن بوابة الحياة انغلقت بوجهه.. وقد رحلت بديعة" (27)

أما الراهبات الثلاث المتخفيات بزي الرهبان فقد اخترن هذه الحياة ليخفين جراحهن العميقة وخذلانهن في الحياة إذ: " ..... عشن في أديرة كثيرة فترات قصيرة وطويلة، واعتدن الإخلاص، واللهفة على الآخر وارتضين بأن يكن مراهم شافية لجروح الناس الظاهرة منها والمخفية، وهن اللواتي أخفين جروحهن الكبيرة والعميقة داخل صدورهن دونما مراهم أو عزاء. لقد جمعن الحزن، والمآسي، والخذلان، في هذا الدير" (ص 30)

حيث انكسرت أحلامهن، "وكلهن كن يكثرن من الصلوات في ساعات القلق الطويلة، ولحظات الخوف المتواصلة، ومواقيت الطمأنينة حين يتآخين في هجعة واحدة فوق سرير واحد، على حلم وحيد ا نكسر، وما يزال ينكسر، تقصّف أمامهن مثل أعواد الحبق اليابسة!! كن حرصات على أن لا تظل الواحدة منهن وحيدة كي لا تكر عليها مواجع الأيام، وكي لا تدهمها أحزان الماضي، كن مقطورات إلى بعضهن بعضاً بإرادتهن، إن صمتت الواحدة منهن تتحايل الثانية عليها، وتخرجها من شرودها، وتسايرها بأي حديث كي لا يجرحها الصمت بهدوئه الحاد" (ص 30-31)

5- صورة الآخر في رواية جسر بناب يعقوب[18]

هذا ما يقدمه الجزء الخاص بالدير .... صورة لخيبة الأمل والرغبات المقموعة.

لا نتوقع من رواية جسر بنات يعقوب أن تكون رواية تاريخية ولا تسجيلية فهي خيال يأخذ من الواقع عناصر رمزية ويرتد بها إلى تاريخ متخيل غير واقعي، ينسج فيها قصة الاستيطان اليهودي على أرض حقيقية، والقصة هنا ليست معادلاً للصراع العربي-الإسرائيلي كما عايشناه ونعايشه، ولكنها تأخذ من أبعاد الصراع زاوية واحدة تركز على الاستيطان وأساليب السيطرة على الأرض... وتعتمد لإيضاح ذلك إبراز صورة الآخر اليهودي في مقابل ابن الأرض ومالكها الأصلي.

ولأن الكاتب لم يرغب في أن تكون روايته بياناً سياسياً أو سرداً تاريخياً للأحداث. لذلك لا يقدم عبر فضاء الرواية صوراً مباشرة لتصادم العرب واليهود. بل جعل المناخ العام قرية الشماصنة التي تتحدث الآرامية وفيها الدير الذي يحذر من خطر يعقوب الداهم. هذا المناخ الروائي غير الواقعي يوحي بأن خطر الآخر ليس مرهوناً بالزمان وليس مرهوناً بالدين فالذي يحذر من يعقوب اليهودي هن راهبات الدير، وتكون الرواية في مجملها مكرسة لبيان صورة الآخر اليهودي دون أن يتم ذكر كلمة يهودي مرة واحدة في الرواية.

وتتجلى صورة الآخر في هذه الرواية في الشخصيات التالية ذات البعد الرمزي الواضح الدلالة لليهودي المعاصر وإن كانت الأحداث جرت قبل سبعة قرون:

1. يعقوب الغريب القادم من الشمال (رمز لليهودي المهاجر إلى فلسطين)
2. بنات يعقوب الفتيات اللاتي لا يتورعن عن استغلال الجنس للحصول على المال واللذة وتحقيق الأهداف.
3. سليمان الغريب الذي سيطر على القرية مخفياً دينه ويشكل هنا أبوة ورعاية ليعقوب الوافد الجديد.
4. شخصية العجوز التي تُوجّه يعقوب وتعمل على دعمه وهي رمز للصهيونية العالمية.

وتكاد تلتقي الصور التي نقابلها هنا لهذه الشخصيات – كما أشرنا سابقاً - مع الصور النمطية السائدة لشخصية اليهودي من حيث الخصائص البدنية والأخلاقية.

حيث نجد الأنف الكبير لدى يعقوب وسليمان عطارة وشخصية التاجر الجشع الذي يستخدم كل الوسائل لتحقيق أهدافه حتى ولو كان على حساب الكرامة وبيع جسد البنات.

تبدأ قصة الآخر في رواية جسر بنات يعقوب ضمن الهوامش التي كانت عبارة عن

"شكل يوميات وملاحظات" كتبها الجد "على ما حدث في الدير وعلاقته بيعقوب وبناته"(ص58)

1-5 صورة يعقوب:

أول الصور التي نلتقيها ليعقوب وهو اسم كما نعلم لإسرائيل ليكون رمزاً لليهودي.

فهو شخصية **أول سماتها بأنه تاجر باحث عن المال** حتى لو كان على حساب كرامته ولو كان باستغلال جسد بناته وزوجته، وهذا هو رأي الرهبان فيه يقول الراوي:

"وقد سمع الرهبان بأخبار يعقوب كلها من الناس الذين زاروهم في قرية الشماصنة والقرى القريبة منها، وقالوا جملة واحدة ظلت في نفوس الآخرين "ترن مثل الجرس " الرجل تاجر"، "وأضافوا شارحين، لمن استوضحهم، بأن الباحث عن المال يصاب بالحمى، وإن أعيته الحيلة، وعجز عن الوصول إلى المال لا يتوانى عن بيع أي شيء يملكه حتى ولو كان كرامته !!، وأضافوا أن رأس مال يعقوب وكرامته هما بناته، ورأس مال البنات جمالهن، وحين يذهب يعقوب، ستتحرر بناته، وسيصير لهن حماة، وأعداء، وأن كل شيء، سيزول مع زوال الجمال، ومع اختلاف العصاة الحماة، وزوال الأسباب التي جمعت العدو مع العدو قربهن"!! (ص58)

وصورة يعقوب الأخرى أنه **شخص** يحب العزلة والانطواء **ولا يحب الارتباط بالأمكنة** ولذا فإنه دائم الانتقال من مكان إلى آخر.

"..... لأنه لا **يحب الارتباط بالأمكنة** مهما طال فيها، فيعقوب وأمثاله، ومنذ أن يخلق الواحد مهم تخلق معه جرثومة حب التنقل من مكان إلى آخر، وحب العزلة والانطواء، لأن الآخرين مثل الضوء يكشفون أعماقه ودواخله وغاياته الرخيصة" !!(ص59)

ولكن هذه الصورة التي يقدمها الكاتب ليعقوب تخالف صورة اليهودي في القرن العشرين الباحث عن الاستقرار في مكان مناسب لحيازته ولاستملاكه، ولسوء الحظ أن هذا المكان الذي تم اختياره كان فلسطين.

وهو **شخص خطير وعدو سيء** إذ إنه يحاول استغلال حاجة الناس :

"..... اجتمعت الراهبات بالنساء اللواتي يذهبن إلى يعقوب من أجل أن يرزقن بالمواليد، وتحدثن إليهن طويلاً، ومرات عديدة بأن ما يفعله الرجل ضرب من الوهم، والسحر، والشعوذة ، وفتحن أمامهن بعض الأوراق التي كتبها، وقرأن فيها كلاماً يثير السخرية والمرارة، وبين أن كثيراً من الحشائش التي يوصى بالتعامل معها سامة، ومضرة بالجسم، وتؤدي إلى العقم، وقلن إن الواجب يقتضي طرد الرجل لأنه خطير وعدو وسيء .... "!! (ص59)

فيعقوب **يتوصل إلى هدفه إذن بطرق ملتوية** ولا يضيره لو ألحق الأذى بالناس كما كان يفعل حين قدم للنساء الأعشاب السامة الضارة بالجسم.

وأما **هيئة يعقوب** فهي تنقل إلينا صورة لشكل اليهودي الشكنازي الذي يجعله أحمر الوجه إشارة إلى أنه أوروبي، وأنفه بارز ويقدمه لنا بصورة كاريكاتورية فهو:

" ..... رجل قصير القامة، رثّ الثياب، أحمر الوجه، بارز الأنف والتجاعيد، وفي خريف عمره، يعرج من إحدى رجليه (من اليمنى تحديداً) خطواته أشبه بخطوات الكنغر، ذلك لأنه يبدو في مسيره كأنه يقفز قفزاً، كتفه اليمنى أكثر انخفاضاً من كتفه اليسرى، يتمطق بشفتيه لكأن شعرة أو بقايا طعام لا تزال عالقة في فمه، وهو عبثاً يحاول إخراجها طوال مسيره. يفرك بيديه، ويرقّص حاجبيه بآلية عجيبة" (ص 64)

ويختار يعقوب الجسر ليكون بدءاً لسيطرته على المنطقة وليكون الجسر رمزاً لفلسطين التي منها سيعبر لتحقيق أحلامه التوسعية في الوطن العربي حيث سيكون حارساً له وضامنه - كما ادّعى- بناءَ على صك سلطاني:

وحين يسأله الرجل الطويل العريض المشمر

"..... إن كان هو ضيفاً، أو مهاجراً، أو رحالة، أو مطروداً، أو طالب علم ؟! أجابه يعقوب، ودونما شرح طويل أنه حارس الجسر وضامنه، واسمه يعقوب، والبنات اللواتي دخلن الكوخ بناته، وأنه سيحرس الجسر ويضمنه بموجب صك الحراسة والضمانة الممنوح له من السلطان." (ص69)

وهنا إشارة إلى أن تسلل اليهود كان بناءَ على تآمر شاركت فيه قوى أخرى.

ولم يثر تسلل اليهود إلى فلسطين انتباه سكانها أو انتباه العرب قاطبة لخطورة تسللهم ومحاولة التملك والاستيلاء على الأراضي والمرافق "أجل لم يكن ذلك الموكب الصغير ليعقوب وبناته وحماره لافتاً للانتباه بحق، ذلك لأن معظم أهالي قرية الشماصنة كانوا يقيلون في بيوتهم، ولأن الرجل وبناته بدوا وكأنهم عابرو سبيل ليس إلا." (ص71) ولم يتبيّنوا حقيقة المخاطر إلا بعد زمن من قيامهم بتولي أمر الجسر.

"..... لم يحتج إلى حراسة، ولم يضمنه أحد الناس والحيوانات يعبرون عليه من جهة إلى أخرى دونما إذن أو سؤال، فما بال يعقوب وبناته ؟؟ سؤال ردّدوه مرات عديدة، ولم يصلوا إلى إجابات عنه، ولم يتضح لهم معنى حراسة الجسر وضمانته إلا بعد وقت طويل !! (ص71)

الترحيب الذي لقيه من وكيل المعصرة لم يكن نابعاً من ذاته وإنما كان بناء على أوامر تلقاها من صاحبها سليمان وهو يتضح فيما بعد يهودي ولكن أهل القرية لا يعلمون بهذا الأمر.

".... مرحباً بك أيها الجار، أنا شاهين وكيل المعصرة، أرسلني سيدي لأطمئن على وصولك، فحق ضيافتك علينا" ! (ص70)

قامت إسرائيل على العنف والتوسع ولذا كانت الرؤية أن الاستيلاء على المكان الذي اختاره يعقوب يحتاج إلى التضحية حتى لو كانت بالنفس إذ لا بد من مباركته بالدم.

"ما يبكيني، يا بناتي، هو أنه لا مناص لي من تقديم دم طاهر لمباركة مكاننا الجديد هذا ، وبغير الدم لن يبارك الرب مقامنا" !! (ص73)

هذه الرؤية لوجود يعقوب تؤشر إلى أن الاستيلاء على الأرض احتاج إلى الدماء.

وشخصية **يعقوب شخصية أنانية** فهو لم يسع إلى افتداء زوجته

".... ولأنني عجزت في لحظات ضعف بشري عن تجاوز طعم الآلام التي سببتها لي فما افتديتها، ولا سعيت إلى ذلك للأسف"!!(ص85)

وهو كذلك يخيف بناته:

".... كان خوف البنات من أبيهن شديداً إلى الحد الذي جعلهن لا يشعرن بأصوات الحشرات المنبعثة من الأعشاب التي تندت." (ص86)

وهو وإن كان يؤمن بأن التضحية بإحدى بناته ضرورية لمباركة السيطرة وإحكامها، إلا أنه يستبدلها بالتضحية بحماره.

وحينما قدّم يعقوب الحمار ضحية أراد أن تكون هناك مجابهة :

".... كان يريد الفروسية في هذه المواجهة، أن تكون أضحية تعب ومجاهدة، غير أن الحمار خذله، فظل واقفاً وقفة البرودة، والاطمئنان والتسليم بما هو آت، وهذا ما عذّب يعقوب وزاد في أساه وأحزانه الراجفة" (ص90)

ويقوم بتوزيع لحم جثة الحمار وتوزيعها على حدود بيته وحول الجسر

" ..... لماذا ينشط في توزيع جسد الحمار قطعة قطعة على حدود البيت، وحول الجسر وكأنه يصنع بها سياجاً ؟! ولم يصلن إلى إجابات شافية." (ص92-93)

وهو **شخصية غير موثوقة** فها هي زوجته تحذر بناتها من أبيهن الذي لا يؤمن جانبه الذي تاجر بزوجته وليس أميناً على بناته من أجل حفنة من المال.

" وقالت لنا محذرة: أن لا نأمن أبانا لأنه لم يكن أميناً علينا ولأنه يكلفنا بما لا تطيق، وبما يؤذي مشاعرها. لقد عاشت ليالي عديدة مع بعض الرجال من أجل أن تأخذ منهم القليل القليل من المال ليسدد أبي ديونه ! وعملت معه طويلاً في المزارع، وتجارة البيض، وسايرت أصحاب الحول والطول وسكتت عن تصرفاتهم المخجلة من أجل أبي والمال معاً." (ص100)

ويعقوب **شخصية تائهة** قادمة من الشمال:

" ... حيث ظل أبي تائهاً بين مهنة وأخرى، وعاثراً في كل ما تمسه يداه، إن وقف مشت الدنيا، وإن مشت وقف هو !! إلى أن خطرت له فكرة أن يتعلم مهنة الحلاقة عند أحد الحلاقين الأرمن؛ تلك الفكرة التي كانت سبباً من أسباب هجرتنا من الشمال إلى هنا" (ص100)

وهو **شخصية نذلة** إذ يطلب من زوجته لتنفيذ أهدافه أن تقبل بزواجها سراً من الأرمني مقابل أن يُعلّمه مهنة الحلاقة "

... إن الأرمني يريدها زوجة شرعاً وعلى مرأى من الناس وبمعرفته، فقال لها حاولي إقناعه أن يتم الزواج سراً !! فجنت أمي تماماً!! (ص101)

وتنقل يعقوب من مكان إلى أخر بعد انفضاح أمره في تقديم زوجته للأرمني الذي طرده " .... ومرت أيام كثيرة إلى أن واجهت أمي الأرمني، وقد ضاقت بتصرفاته ذرعاً، وكأنه زوجها تماماً، وقالت له الحقيقة !! فهاج الأرمني، وغضب غضباً شديداً، فطرد أبي من دكانه، وأشاع خبره بين الناس؛ الأمر الذي جعل أبي يهاجر من الشمال بعدما حقره الآخرون، ولاموه كثيراً ، وراح يقضي أيامه التالية مع أمي في تنقل موجع من مكان إلى آخر" (ص 102)

ويحاول يعقوب استدرار العاطفة بأساليب استجدائية.

" ..... ولماذا لم تتزين يا أبي فأنت ستواجه أهل القرية ؟! فيجيبها، وكأنه عثر على مفتاح الكلام أخيراً : لا أريدهم أن يطمعوا بي يا ابنتي، وتسأله : كيف ؟؟ فيقول: إنني بمنظري هذا أكسبهم للأبد، وتكرر ابنته سؤالها : كيف ؟؟ فيقول يعقوب : هم أهل عاطفة، يشاهدون، فينفعلون" (ص113)

ويعقوب **ماهر كباقي اليهود في تسويق نفسه:**

" ..... واستدار يعقوب وجوديت متجهين نحو القرية، وقبل أن يجتاز الناس، واقف يعقوب بعضاً منهم، عرّفهم إليه، وإلى ابنته، ودعاهم لزيارته في بيته قرب الجسر ليعالج بعض حيواناتهم إن كانت مصابة بالأمراض، أو بالجروح، أو لكي يحذى الخيول والبغال، أو ليقص شعرهم الطويل، أو ليداوي أسنانهم المسوسة، أو ليطهر أولادهم، وهكذا .. خلال لحظات فقط، وابنته واجمة، راح يكرز لمهنة

الحلاقة التي يتقنها، بل يكرز للحلاقة وتوابعها، الأمر الذي أدهش الناس من حوله، فتندروا به وعّدوه رجلاً مسلياً كسر رتابة مللهم وانتظارهم الطويل قرب المعصرة." (ص120)

والناس يصدقونه

"..... كل هذه الأشياء والمخلوقات حصل عليها يعقوب دون مقابل. لقد أقنع الأهالي بأنه سيرد جميع ما اقترضه منهم حالما يستقر في مكانه الجديد، وحالما يشرع في عمله. بل أكد لهم أنه سيعيدها إليهم مضاعفة في قيمتها بعدما حدّثهم طويلاً عن قدراته وخبراته والمهن التي يتقنها، فصدقوه، وقد أحسّوا أنه بحاجة إليه فعلاً، هم ودوابهم، وأنهم لا يدرون متى سيطلبون منه خدمة ما في ليل أو نهار؛ لذلك ... أجزلوا له في العطاء وأسرفوا." (ص122)

ويدرك **يعقوب غربته عن المنطقة**

" .... لم نجد أحداً في استقبالنا، يا سليمان، لا البشر ، ولا الشجر، ولا المكان. أنا متشائم يا أخي، ومتعب ساعدني أرجوك، أين صدرك " ؟! (ص189)

" ما بالك يا يعقوب، أراك ضعيفاً، منكسراً قبل أن تهب ريح الآخرين عليك. يا رجل لو قارنت نفسك وأنت في أول قدومك مع أول قدومي إلى هنا، لرأيت عجباً، فأنا لم أجد من يناصرني، ولا من يرد تحيتي، وها أنت ترى الآن حالي، وكيف تعبت حتى وصلت إلى راحتي هذه. لا تخف يا أخي فأنا لن أتخلى عنك. معك سليمان عطارة يا رجل. فكف عن هذا الأسى، أرجوك !!" (ص 189)

والمال **عند يعقوب هو كل شيء** ولذا يحاول إقناع إحدى بناته بالزواج من سليمان

" سليمان يا بناتي، هو الدنيا!! من دونه لا نستطيع أن نعيش هنا. أن أعطيناه جوديت وهب الحياة لنا والسعادة"!، أنتن لا تعرفن شيئاً، الدنيا مال، والمال عند سليمان، ومن دون مال لا نستطيع أن نمشي خطوة واحدة "! (ص210)

" كيفما فكرنا بأمر سليمان وزواجك منه، يا ابنتي، سيكون الربح إلى جانبنا، فالولد الذي يأتي منه لنا، لا له" ! (ص 212)

والجسر يصبح رمزاً للسيطرة:

"..... . أن الجسر سيصبح بوجود بنات يعقوب البقرة الحلوب التي لن يستغني عنها يعقوب أبداً، فالجسر سيكون حديث الناس في القرى المحيطة به وفي القرى البعيدة عنه، كما ستكون بنات يعقوب المشاجب التي سيعلق عليها يعقوب كل مشكلاته، وكل أعدائه، وكل أمانيه القادمة !!(ص227)

2-5- صورة بنات يعقوب:

الصورة التي يقدمها لبنات يعقوب متماثلة فهن يتسمن بنفس السمات من حيث الجمال ومن حيث الصفات الأخلاقية، فبنات يعقوب الثلاثة يمنحن جسدهن لرحمون ويتبادلن مواقع الحراسة والملاصقة:

" ... ولم يدر رحمون، كيف تبادلت الأختان ولمرات عدة، مواقع الحراسة، وملاصقته ! كان غائباً تماماً في سحر العذوبة الأنثوية البعيدة المنال، كان أشبه بالدائخ الذي لا يقع، وبالساهر الذي ذبلت عيناه، فازدادت رهافة أصابعه، ونعومة جلده، بدا كما لو أنه جسد من الأثير يرى ولا يرى. وبدت الأختان بقربه، وبملاصقته، وبتوحدهما معه، وكأنهما الدنيا التي يشتهي فتوحد بهما، وأنبت كل لطافته، ولفهما، دون أن يدري بأنهما اثنتان، بالعذوبة التي أذابتهما، وأوقدت نارهما حتى صارتا كالتنور رؤية وجمالاً وحساً!! (ص105)

" ... ولم يكن ذلك المخلوق الأنثوي سوى الأخت الكبرى، ابنة يعقوب التي عادت لتوها من القرية، متعبة، لم يعدها إلى الحياة إلا سرّ رحمون الذي أفضت به إليها أختاها، فتحايلت على أبيها بمساعدة أختيها، وهبطت الدرب... إلى حيث هو رحمون يصلي. وهناك، وتحت شجرة التوت الكبيرة، وعلى مفرش العشب الندي الطري، حلمت كما حلمت أختاها، وعاشت كما عاشتا، وانتشت نشوتها المعذوبة. وبذلك تساوت مع أختيها بالتعب والمسرة الكاملة"!! (ص108)

وبنات يعقوب يدركن أن هذه الأرض ليست لهن حيث لا يعرفن أسماء الأمكنة والنبات

"..... وبدل أن تهدأ ابنته وتكف عن الأسئلة، تطارده بقولها الذي يكاد يفلقه: " وكيف لا تعرف أسماء الأمكنة والنباتات والأشجار يا أبي، وهي لنا"؟؟! ، وتزيد في إلحاحها كسكين تحفر مجرى لها بهدوء: وكيف تكون لنا، ونحن لا نعرفها؟؟! وما من إجابة !! (ص112)

وأما جوديت فهي لا تسلم نفسها لسليمان زوجها إلا بعد أن نالت القطع النقدية :

" ... ولم تسلس انقيادها له إلا عندما أخرج من صندوق خشبي كبير مصدف كيساً قماشياً صغيراً فارغاً مشدوداً بخيط من عند فتحته، وضعه في عنقها، وراح يملؤه بالقطع النقدية حتى ملأ الرنين الجميل الساحر أذنيها، لحظتئذ ابتسمت له، وأرخت رأسها على عنقه الذي لم يعد في نظرها عنقاً محمراً مطوّى، وتركت نعومة خدها لزاوية فمه اليمنى التي ما عادت تشعر برطوبة لعابها الذي يسيل كمجرى ماء صغير له لمعته الدائمة."!!! (ص250)

3-5 صورة سليمان عطارة:

ونلتقي بيهودي آخر سليمان صاحب المعصرة واسمه يدل عليه ويعيش في القرية كواحد منهم مخفيا شخصيته الحقيقية دون أن يعرفوا هويته الدينية.

" .... فجاء أهل القرية إليه، عزّوه، وواسوه، وحملوا زوجته، بعد غسل جسدها وتكفينه إلى المقبرة، فدفنوها كما يدفنون ميتاً لهم، وأبدى أسفه الشديد لأنه وقد أصبح وحيداً تماماً، لم يستطع أن يكشف لهم عن دين زوجته ودينه أيضاً، وقد ابتلى بالموت، وشكا ليعقوب وابنته وحدته، وأنه ما من معين له سوى ماله. " (ص131)

وقد سيطر على القرية وهو يخفي هويته الدينية

" .... لقد تركت ديني أمام أهالي القرية يا يعقوب من أجل أن أعيش فيها كأني واحد من أهلها. وبت أنصرف إلى ديني حين اعتزل الأهالي وأخلو مع نفسي. ورحت أشارك الناس هنا في الأفراح وا لأتراح معاً. أصلي مع المصلين، وأصوم مع الصائمين دون أن أكشف لأيّ منهم عن ديني!"(ص131)

وبدأ حياته حمالاً

" ... سعيت، منذ وصولي إلى الشماصنة إلى أن أظهر بين الأهالي فاشتغلت أول الأمر حمالاً في مواسم الزيتون. اشتريت عربة وبغلاً بالدين، ورحت أنقل أكياس الزيتون من الحقول إلى المعصرة. أخذت أجري (ثمنية) زيتون عن كل كيس."(ص132)

وملامح سليمان تشبه ملامح يعقوب التي توحي بغربته عن المكان وتعزز الصورة النمطية لشخصية اليهودي الأوروبي بأنفه البارز ووجهه الأحمر.

" .... بدا سليمان عطارة لجوديت كأنه الشبيه الكامل لأبيها، بل بدا كأنه التوأم الآخر، بوجهه الأحمر، وأنفه البارز، وجبينه المغضن ورأسه الأصلع إلا من بواقي شعر طويل متهدل فوق أذنيه الكبيرتين المحمرتين تماماً. يأخذ سائل أنفه بأصابع يده كلما تدلى غير مكترث بوجود الآخرين حوله، لكأنما اعتاد على ذلك منذ أمد بعيد. يغمر جسده بثياب رثّة، وقد انكشف طرف قميصه عن صدره الخالي تماماً من الشعر."(ص136)

وسليمان ينتظر المساندة والدعم من اليهود الآخرين إذ يرى بأن يعقوب جاء ليشد أزره :

"..... جئت لتشد ظهري يا يعقوب، فكيف أقطعك !! ويتركه يعقوب وابنته بعدما أعطاهما واحداً من حميره، وخرجا فلفهما الهدوء، وقد سها الصبية عنهما. وفي الطريق، سألت جوديت أباها عن سليمان عطارة، فقال لها: "إنه قريبنا" !! وعندما استوضحته أكثر، قال بإيجاز: هو من أهلي، وقد سبقنا إلى هنا منذ سنوات " (137)

وسليمان كانت له بنت شقراء تعطي القبلة لمن يشتهيها وهو يلتقي مع يعقوب في أمر استغلال المرأة لتحقيق المصالح:

" ..... يعرف جميع أهالي قرية الشماصنة وبعض أهالي القرى المحيطة بها، أن سليمان عطارة، جاء إلى الشماصنة مع زوجته وابنته الشابة الشقراء التي ضيعت الكثير من الشبان، كانت بنتاً طويلة، ممتلئة، ذات شعر طويل أشقر، ووجه طويل أبيض، حمرته أشبه بحمرة الخوخ. كانت ضحوكة، لينة ذات قبول، تعطي القبلة لمن يشتهيها وبالمقابل" (ص138)

ومن خلال ابنته وردة أصبح سليمان خلال أشهر قليلة فقط امتلك كل شيء في القرية: " ..... وخلال أشهر قليلة فقط صارت المعصرة والأرض والبيوت والمخازن، ومعمل الجرار، والعربة وثلاث بغال وعدد من الحمير، والأغنام، وطيور الدجاج ملكاً لسليمان عطارة مقابل الليالي التي قضاها عباس الشهواني مع وردة (ص139)

4-5 <u>صورة العجوز :</u>

وتبرز في الرواية امرأة عجوز، وجودها ذو طابع أسطوري لتكون رمزاً فيما أتخيل للصهيونية العالمية، والتي لم يعجبها تضحية يعقوب الحمار وتعاتبه على ذلك بقسوة عاتية:

"أتضحي بحمار يا يعقوب"!!(ص115)

وتسأله " لماذا لم تضح بعضو من أعضائك "؟؟! وأضافت: "أين هي ذراعك التي قطعتها، أي هي عينك التي اقتلعتها، أي هي قدمك التي بترتها"؟؟! ، وحين تتعالى همهماته، تصرخ به : والرب يا يعقوب ؟! (ص116)

وهنا يتضح بأن المرأة العجوز ترى أن مباركة الاستيلاء على الأرض والجسر لا يمكن أن تتم إلا بالتضحية بالنفس.

فهذه العجوز (رمز الصهيونية العالمية) تساعد يعقوب في إقناع بناته للزواج من سليمان لتحقق بذلك تحالف قوياً بين اليهود.

فحينما تقول ابنة يعقوب:

" لكن الزواج من سليمان موت لا حياة يا سيدتي"

تجيبها:

"أنت واهمة يا ابنتي، وافقي، فما من شر أو عذاب ينتظرك عنده" ، وتستدير العجوز راحلة، وهي توصيهن بحذر شديد: " لا تفعلن ما اتفقتن عليه، فالأب أب يا بناتي" !!(ص216)

والعجوز تبارك الزواج على الرغم من عدم التكافؤ بين العروسين:

" .... فوجئ سليمان عطارة بتلك المرأة العجوز ذات الشعر المكشوف الأبيض التي عرفته فوراً وأمرته أن يقترب منها، وأن يقف قبالة جوديت لكي تبارك زواجهما في ليلة مباركة، ووقت مبارك وبيد مباركة أيضاً"! (ص218)

وتطلب من سليمان مساندة يعقوب وتحمل معها نبوءة السيطرة على المكان:

" ستساعده يا سليمان، لأن يعقوب سيصبح سيد المكان، وفي مساعدتك له ربح لك لا خسارة أتفهمني. تشجع يا سليمان، واجعل يدك قرب كيسك وأمدّه قبل أن تخسر الفرصة الممنوحة له"!! (ص226)

وتختفي العجوز وكوخها بلقطة فانتازيا بعدما اطمأنت على وضع يعقوب :

" ومع طلوع الفجر، استيقظ سليمان عطارة مذعوراً مرهقاً . جال ببصره في أرجاء المكان. لم يجد الكوخ الذي كان قربه قبل قليل، كما لم يجد العجوز. لقد اختفى الكوخ واختفت العجوز."! (ص228)

" غير أن العجوز ما عادت إلى الظهور، وما عاد صوتها يعلو أن يسمع. الحيرة استولت على سليمان عطارة، وصارت العجوز بالنسبة إليه لغزاً، وقد كانت ما حيّره كثيراً أن صوتها الآمر يأتيه من وراء ظهره دائماً"!(ص229)

ويتمثل شكل العجوز بالصورة النمطية لليهودي التي تشكل دوماً حارساً لمصلحة يعقوب وتمارس التهديد لمن لا يساعده

" الأمر وما فيه ، يا سليمان، أنني لم استيقظ هذا الصباح بمفردي كما أستيقظ عادة، لقد استيقظت على صوت امرأة عجوز طويلة، ناحلة، بيضاء، تلبس السواد، أنفها طويل بارز وعيناها واسعتان، وشعرها الأشيب الكثيف مثل أجمة الشوك، راحت تأمرني بأن أستيقظ، وتنادين باسمي،

وحين فتحت عينيّ دهشت من منظرها، وقربها مني، فأنا لم أشاهدها من قبل، كما أنني لا أعرفها. رأيتها واقفة فوق رأسي مستندة إلى عصاها الطويلة ذات العقد فسألتها ماذا تريد، فقالت : "ساعد يعقوب الذي سيأتي إليك بعد قليل. أعطه ما يريد من الحجارة، وإلا ذهبت عافيتك، وانهدم المقلع على ما فيه" !! " ولم أدر كيف وافقت على طلبها، كما لم أدر لماذا جف حلقي فنسيت أن أسألها من هي ؟!" "ومن أي لها الجرأة حتى تتدخل في شؤوني، وتأمرني بأن أفعل أو لا أفعل، كانت لها مهابة مرعبة، جعلتني أحسبها مقتنعاً بأنها مخلوق ليس من سكان الأرض، هبط قربي فجأة ليأمرني بمساعدة يعقوب والأخذ بيده"! (ص 236-237)

والعجوز قدمت ليعقوب ما لا يتوقعه من المساعدة :

" لقد فعلت العجوز ليعقوب ما لم يكن يحلم به إطلاقاً. ومن دون أن يدري. فمنذ قدومه وهو يقطف هبات يوم رضاها واحدة واحدة "! (ص238)

5-5 صور شخصيات أهل الشماصنة:

صور الشخصيات من أهل القرية التي تتعامل مع الآخر صور لشخصيات محدودة باهتة ولا تكاد نعثر على ملامح هامة لهذه الشخصيات ولعل الشيء الواضح فيها هو شهوانية تسيطر عليهم وتوظف لخدمة يعقوب وبناته مثل شخصية رحمون وسمعان والعبوسي وعباس الشهواني.

وأما سمعان المعماري فقد استغله يعقوب مقابل لذته فقط:

"..... ولكم ترك الحجارة ليقابل واحدة منهن، ولكم عاد إلى الحجارة ليواصل البناء. وما كان يدري أن هذه المحاضنات السريعة المحمومة هي أجرته فقط "!

"طبعاً، لم يكن يدري سمعان المعماري أن عماله الثلاثة أيضاً، نالوا مثلما نال وبعيداً عن عينيه. فانتشوا، وغابوا في لذة لم تكن في بالهم قط "!(244)

أما شخصية رحمون فهي شخصية مرتبطة بالأرض، ونجد رحمون مستغرباً وجود يعقوب وبناته في منطقته:

" ... ورحمون ينظر إليهم نظرات طويلة، سائلة، مستغربة!! ويعقوب يفرك بيديه، وقد جحظت عيناه، وبناته من خلفه من القنافذ ينتظرون ماذا سيقول رحمون، وبماذا سيجيب أبوهن!!" (ص78-79)

6. الخاتمة:

القصة كما أشرنا سابقاً جزءان :

- حكاية الدير الذي يخدم الشماصنة

- وحكاية بنات يعقوب / بنات اسرائيل

صورة "النحن" في الرواية ـ وجودها شاحب ـــ فوجوه أهل الشماصنة أشبه بالظلال، أشخاص سلبيون وفيهم سذاجة، يضحك عليهم سليمان عطارة ويسيطر على المطحنة وعلى القرية ولا يعرفون حقيقته .

الأشخاص من أهل القرية ومنطقتها غير فاعلين ، ويكون إشباع الشهوة واحداً من عوامل السيطرة عليهم مثل شخصية عباس الشهواني وسمعان المعماري ورحمون وعصمان (ص244) .

لا يظهر البعد الجمعي ولا الإيجابي لدى أهل الشماصنة ولا لدى أهل الدير .. فكل واحد منهم لا تعثر في زوايا شخصيته على بعد يتجاوز حدود الذات ، فمعظمهم اشخاص لديهم خيبات فردية تقودهم إلى ما هـــــم فيه .الراهبات المتخفيات في زي الرهبان ـــ وجودهن في الدير نتيجة لخيبات في الحياة الدنيونية ويهربن منها إلى عالم الرهبنة ، ولكن دون أن يكون ذلك بإطفاء نهائي لروح العيش في عالم الحياة الدينوية .

- الرواية عالمان : عالم الدير وقريته / ثم عالم بنات يعقوب والجسر الذي يحتلونه

لم يظهر لنا جوانب الصراع بين هذين العالمين، ولا نكاد نعثر على جوانب تمرد لمجابهة السلوك اليهودي في المنطقة إلا في موقفين حيث في الحاشية العاشرة نجد تفصيلاً صغيراً حول مشاجرات كثيرة حدثت بين يعقوب والناس " .... حيث تمرد الناس عليه، وأجبروه مرات عدة على أن ينزل الجسر المعلق في الهواء دون أن يدفعوا شيئاً. وكان يعقوب يوافق مرغماً، يقول لبناته اللواتي يراقبن انكساره، ويعايشن وحدته، مع الأيام سيتعود الناس على الدفع قبل أن يعبروا سيجهزون ما سيدفعونه، الأيام كفيلة بهم" (ص253)

وفي الكتاب الثاني عشر "موت يعقوب" نجد أن هذا الموت كان على يد رجل رأى مشهد عري زوجته مع يعقوب، فيكون ثأراً شخصياً حيث يقتل زوجته ويقتل يعقوب وهما عاريان

" وحين التفت يعقوب نحو الرجل استشاط غضبه، فنهره وسبه، أما الرجل فقد ذهل تماماً وقد رأى ما رأى ولم يدر كيف التقط حجراً كبيراً وضرب به رأس يعقوب بقسوة شديدة فهرسه تماماً،

وسط صراخ امرأتـه وعريهـا الفاضـح، ووسـط صـياحه هـو، وحالـة الهيجـان التـي اسـتولت عليهـا" (ص268)، ويلقي جثتهما في النهر " وعند ضفة النهر رمى الجثتين في الماء ثم غسل يديه من دمهـما وكأن شيئاً لم يكن" (ص268)

ولكن هذا الرجل يلقى مصرعه إغراقاً في النهر على يد عصمان الأجير العميل لدى يعقـوب:" ودون انتباه منه خرج إليه عصمان، وتقدم منه بكل ثقة، وقتله غرقاً في ماء النهر، ظل عصمان قابضاً عليه تحت الماء حتى خرجت روحه، بدا وكأنـه استسـلم لقـوة عصـمان، أو أنـه استسـلم لموتـه وراحتـه المنشودة بعدما فعل ما فعل" (ص 268)

الهوامش

[1] حسن حميد: جسر بنات يعقوب الطبعة الثانية (دمشق: دار السوسن للنشر والتوزيع والطباعة 2001

2 حسن حميد "الونّاس عطية ص 29

[3] Encyclopedia Britanica V.12 ed. 14 P.108

[4] Kenneth E. Boulding : : The Image . Ann Arbor : The University Of Michigan press .p.132

[5]Ibid 168 المصدر نفسه ص

[6] Shipley Joseph T. "Dictionary of World. Literature", Little Field Adams and Co. New Jersey, 1968 ., P. 219

[7] (أوستين وارن –رينية ويلك – " نظرية الأدب" ترجمة محيي الدين صبحي، دمشق، 1972، ص 204.)

[8] المصدر نفسه 1972، ص 241.

[9] - أ.أ رتشاردز : مبادئ النقد الأدبي. ترجمة د. مصطفى بدوي، القاهرة سنة 1963 ، ص 172.

[10] http://www.popularculture.nelson.com/glossary.html

[11] http://changingminds.org/explanations/theories/stereotypes.ht

[12] ويقدم بورستين Daniel J. Boorstin توصيفاً لخصائص الصورة المرتبطة بالمؤسسات والتي يرى أنها ملامح لجميع أنواع التفكير للصورة في حياتنا وهي :

1- أنها تجميعية Synthetic : وهي مخططة لتخدم هدفاً وتخلق نوعاً معيناً من الانطباع.
2- أنها قابلة للتصديق : وهي لا تخدم شيئاً إذا كان الناس لا يصدقونها وفي عقولهم فيجب أن تقابل صورة المؤسسة أو الفرد الذي يتصورنه .
3- الصورة سليمة : حيث أن الصورة من المفترض أن تتلازم Congruent مع الواقع، فإن تتبع الصورة (بالتحديد المؤسسة) يتوقع أن تلائم الصورة بدلاً من أن تكافحها .
4- الصورة حيوية وصلدة الصورة محدودة ويجب أن تكون قابلة للاستيعاب أكثر من شيء آخر .
5- الصورة مبسطة والاستبعاد الأوجه غير المرغوبه يجب أن تكون أبسط من الأشياء التي تمثلها .
6- الصورة غامضة فهي تطفو بين الخيال والحواس بين التوقع والواقع فهي إذن غامضة ص . ص 184 – 194)

Daniel J. Boorstin : The Image . A Guide to Pseudo – Events in America : Atheneum : New York , 1978 , P.P

184 – 194.

[13] Kenneth E. Boulding : : The Image . Ann Arbor : The University Of Michigan press . 1956 p.p 47 – 48

[14] جاء في موقع اسرائلي –صهيوني استعراضا لكتاب الخوف من اليهودية وفيه تم الحديث عن تأليف كتاب حكماء صهيون وكتب أخرى مشابهة وهذا هو النص :

A feature of Russian Judeophobia which had far-reaching influence was its manner of self-justification. The Czarist secret police looked for a means to ideologically justify its actions. They finally found it in a book, "The Protocols of the Elders of Zion," written by Sergei Nilus around 1902, which is a modern adaptation of the old demoniac tradition.

The book supposedly included the "true" Protocols of the Jewish conference held in Basle, Switzerland in 1897 (the First World Zionist Congress) which while presenting its aims as the establishment of a national home for the Jews, really conveyed a plan to dominate the world. In it, rabbis and leaders speak about their blood-thirsty inclinations, machinations and power.

There were some precedents to the Protocols, but only Nilus's book was a resounding success, as we will see. Three previous similar manuscripts were written in 1869: one German ("The Rabbi's Speech" by Hermann Goedsche), one French ("The Jew, Judaism and the Judaization of the Christian Peoples" by Gougenot de Mousseaux), and one Russian ("The Book of the Kahal", by Jacob Branfman

{ Judeophobia - History and analysis of Antisemitism, Jew-Hate and anti-"Zionism" Chapter 11: Conspiratorial Theories and Russian Judeophobia ('Anti-Semitism')} (http://www.zionism-israel.com/his/judeophobia9.htm)

[15] Doug Brook Turn down the stereotype[http://carfax.cnc.net/beholder/2005/beholder0505.html] وانظر، (**Wendi Muse** Damned If You Do: Jews in the Spotlight, Stereotypes, and Identity)

http://www.racialicious.com/2008/04/14/damned-if-you-do-jews-in-the-spotlight-stereotypes-and-identity-full-piece/

[16] أخذ اليهود حقهم الكامل في هذه الحضارة التجارية الشرق أوسطية وبالتحديد من القرن العاشر حتى القرن الثالث عشر ، أخذت في ذلك الوقت وفي تلك البقعة من العالم اليهودية شكلها النهائي .هناك ، تحت تأثير المسلمين العرب ، أصبح الفكر والفلسفة اليهودية والقانون اليهودي والممارسات الدينية منظم وتشكل بشكله النهائي ، حتى اللغة العبرية ، تطورت قواعدها ومفرداتها على غرار نموذج اللغة العربية . كان سيصبح مبدأ إحياء

اللغة العبرية في وقتنا الحالي غير منطقي بدون الخدمات التي أضفتها اللغة العربية بشتى الطرق منذ ألف عام . أصبحت اللغة العربية نفسها اللغة اليهودية ، على نقيض اللاتينية في أوروبا ، حيث أصبح اليهود يستخدمونها في شتى المجالات الدينية ، ما عدا في الصلاوات في الكنيس .إن الحياة المتداخلة بين الحياة العربية واليهودية يمكن وصفها بشكل مباشر بأن اليهود في البلدان العربية كان لهم مشاركة كاملة في تراجع وتدهور هذه البلدان في أواخر العصور الوسطى ، والقرون التي تلتها .

S. D. Goiten , Jews & Arabs :Their Contacts Through the Ages.3rd Edition .New York :Schocken Books 1974 p . p 7-8

[17] تاريخياً ، كان العداء للسامية في العالم الإسلامي كماً ونوعاً متميزاً عن العداء السامية في العالم الغربي المسيحي . الحظ السيء لليهود في البلدان الإسلامية لا يقترب في تركيزه وقوته من التجربة اليهودية في أوروبا نادراً ما كان اليهودي في البلدان الإسلامية يعامل كغريب .كان هناك بعض الإقصاءات في الجزء الأكبر ، كان القانون يحمي اليهودي من العدوان من جيرانه .لم يكن اليهود الأعداء الأساسيين في العقيدة الإسلامية كان هناك حالة من التسامح الديني افتقدها الدين المسيحي تجاههم . لم يكن العنف المكثف والاضطهاد المعادي للسامية ولكنه كان موسمياً وغير منتظم .وكان هناك مراحل وأماكن في تفاعل بين العرب واليهود بمودة أصيلة ولهذه الأسباب فإن العلاقات الإسلامية العربية – اليهودية لا تدخل ضمن هذه الدراسة . (ص 7)

Paul E. Grosser & Edwin G. Halperin: Anti-Semitism The Causes Effects of a Prejudice, Citadel Press, Secaucus, N . J. : 1979-p7.

[18] بنات يعقوب (جسر) يقع على نهر الأردن-على بعد قرابة كيلو متر من جنوب بحيرة الحولة التي جففت. ويبعد عن مدينة صفد حوالي 20كم. قيل في سبب الاسم: أن يعقوب النبي عبر الأردن من هذه المنطقة، وهو في طريقه إلى حران لزيارة خاله (لابان). أو في طريق عودته منها.. وتذكر بعض الروايات أن صلاح الدين الأيوبي هو الذي أنشأ هذا الجسر لربط طرق القوافل القادمة من فلسطين إلى دمشق. وجدده الملك الظاهر بيبرس. ويرجح البعض أن بناء الجسر والخان المجاورة له من الجهة الشرقية قد تم قبيل منتصف القرن الخامس عشر الميلادي ثم جدد بناؤه في أواخر القرن السادس عشر، ذكره أبو الفداء المؤرخ باسم (بنت يعقوب). وهو اليوم نقطة حراسة وبه معسكر للجيش الإسرائيلي. وهو مبني من الحجارة البركانية السوداء ورفع على أربع قناطر. (آمنة أبو حجر، موسوعة المدن والقرى الفلسطينية ، الجزء الأول، دار أسامة للنشر، 2003)